

## الجبل المقدّس آثوس

### مقدمة

من يزور الجبل المقدّس لأول مرّة يتنازعه إنطباعان متناقضان صعب تلاقيهما. أول إنطباع وهو مُشجع: جمال المناظر والسلام العميق الذي ينبعث منها. استقبال الرهبان وعظمة الطقوس الكنسية تؤثر في النفوس بشكل جميل. أما الإنطباع الثاني فهو غامض: تكريم الإيقونات، إشارات الصليب والإنحناءات المتعددة، وكذلك ومظاهر التقوى عند الرهبان وأحاديثهم التي تذهل الزائر من العالم. أحدهم قال مرة: "يوجد في ديانة هؤلاء الرهبان من التطيّر بمقدار ما فيه من الإيمان العقلاني".



راهب على قمة جبل آثوس

ردّات الفعل هذه تُظهر الاختلاف العميق القائم بين العالم الذي يأتي منه الزائر والعالم الذي يعيش فيه هؤلاء الرهبان. هنا يجدر التوضيح أنه ليس هو فقط عالم هؤلاء الرهبان الذي هو السبب، لأنهم لا يعيشون في إطار مغلق لأن جبل آثوس ليس هو عالماً مغلّلاً على ذاته، فإنه حيويّاً مرتبط بعالم ديني وثقافي واسع، هو العالم الأرثوذكسي، والجبل هو كمثل القلب الروحي لهذا العالم. التبادل قائم ومستمر بين الجبل ومناطق عدّة من هذا العالم: لا فقط بين الجبل واليونان وقبرص بل وروسيا، والبلاد السلافية وصربيا ورومانيا وكذلك الشرق الأدنى الذي يشكّل الأرثوذكسيون فيه أقلّيات ولكنهم دينامكيون. أضف إلى ذلك الجماعات الأرثوذكسية في أوروبا الغربية والولايات المتحدة وأفريقيا وأستراليا التي هي أيضاً أقلّيات ولكنها حيّة. يمثّل هذه المناطق، في الجبل، الرهبان القادمون منها وكذلك الحجاج الذين يأتون إلى الجبل للمنفعة الروحية.

### نبذة تاريخية عن الجبل المقدّس آثوس

جبل آثوس هو إحدى شبه جزر خالكيدكي الثلاث في بحر إيجه. وشبه جزيرة آثوس هي أكثرهم شرقاً: طولها 60 كيلومتراً وعرضها يتراوح بين 8 و 12 كيلومتراً.

القسم المحيط بآثوس مؤلف من هضبات منخفضة وسهول منتظمة، هذه التضاريس تتضح أكثر فأكثر، والهضبات تصبح أكثر فأكثر علواً حتى تصل إلى قمة جبل آثوس التي ترتفع عن سطح البحر 2033 متراً.



خريطة خالكيدنيكي مع تفرعاتها

منذ القدم يظهر جبل آثوس كمكان إستثنائي ذات التاريخ والمصير المميّزين. فإن "هوميروس" ذكره في كتاباته، والأسطورة تقول أنه كان إحدى مساكن الإله "زوس". لقد سميت خالكيدنيكي في القديم، "أكتي"، وجبل آثوس المتصل بها هو الأقدم ذكراً. تقول الأسطورة إنه في المعركة التاريخية التي نشبت بين العمالقة والآلهة، رميت هذه الصخرة الكبيرة (آثوس) على رأس بوسايدون إله البحر. في التاريخ أيضاً ذكر لآثوس في حروب الميديين، والهزيمة المريعة للأسطول الفارسي بقيادة الجنرال مردونيوس، بحيث غرقت كل سفنه ومات عشرون ألفاً من جنده، في الجانب الجنوبي لشبه الجزيرة وذلك عام 419 قبل الميلاد.

وحاول كزركس (Xerxes)، قاهر الجنرال مردونيوس، أن يحطّم الأرض التي تصل بين آثوس والقارة لحماية سفنه من خطر أمواج.

كما أراد دينوكراتس، المهندس في جيش الإسكندر الكبير، أن ينحت آثوس على شكل تمثال عملاق لملكه حاملاً بإحدى يديه مدينة وفي الأخرى كأساً كبيرة تجري منها مياه نهر غزيرة تصب في البحر.

في التراث أنه فيما كانت والدّة الإله مع يوحنا الإنجيلي في سفينة متجهة إلى قبرص، هبّت عاصفة عنيفة حادت بالسفينة إلى شواطئ آثوس. في هذا الموقع شُيّد في وقت لاحق دير الإيفيرون (Iviron). ونظراً لجمال الموقع ولكون هذه الأرض استقبلت والدّة الإله، طلبت من ابنها أن يقدمها لها هدية. عندها سُمع صوت قائلاً: "ليكن هذا المكان لك، ليكن بستانك وفردوسك وملجأ كل الذين يبتغون خلاصهم."



والدة الإله رئيسة جبل آثوس

انطلقت الحياة الرهبانية في شبه الجزيرة حوالي القرن السابع للميلاد. الرهبان الأوائل أتوا إلى هذا المكان المنعزل ذات المناخ المميّز يبحثون عن خلاص نفوسهم. أتوا من نواحي كبادوكية ومصر وسوريا من حيث طردهم الإسلام. محاربة الأيقونات أيضاً في القسطنطينية أنمت عدائية الحكّام والشعب للرهبان والحياة الرهبانية.

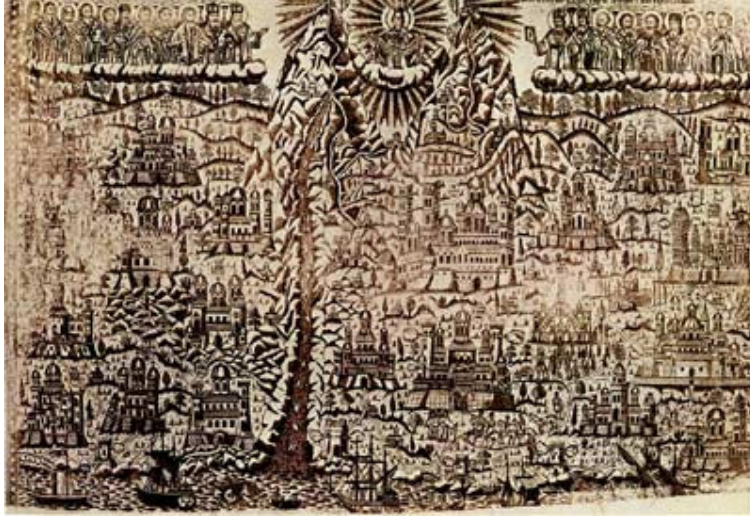
لكن هجرة الرهبان إلى آثوس لم تكن بلا اصطدام مع الرعيان وقطعانهم الذين كانوا يحتلّون المنطقة.

عام 885، صدر مرسوم مختوم بالذهب من الإمبراطور باسيلئوس الأول منح فيه آثوس حصرياً للرهبان ومنشأتهم. ورغم استقرار النساك الأوائل على ضفاف شبه الجزيرة إلا أن المستوطنات الرهبانية إنتقلت، لاحقاً، إلى المرتفعات والمنحدرات التي يصعب الوصول إليها حماية من القراصنة المسلمين (Sarrasins).

أخذ عدد الرهبان يتزايد تدريجياً. الجماعات الأولى انتظمت بشكل لافرا (Iavras)، كالتي في فلسطين حيث لا يوجد قواعد صارمة فيما يخص الحياة المشتركة فيها.

في العام 963، أخذ الإمبراطور نيكيفوروس فوقاً على عاتقه تنظيم الحياة الرهبانية في آثوس بحسب أسس وقواعد محدّدة. فبعث إلى هناك صديقه ومعرفه أثناسيوس الذي أصبح فيما بعد أول منشئ للحياة الرهبانية المشتركة في آثوس. وفي العام 963 أيضاً، أنشأ دير اللافرا الكبير. لم يعد هناك أكواخ خشبية بل بناء

حجري يتبع الرهبان فيه قوانين الحياة والصلوات المشتركة. هذه القوانين أو "التبكون" استلهمت من القوانين المطبقة في دير القسطنطينية الكبير "الستوديون".



أديرة جبل آثوس في نقش من عام 1889

ابتداء من القرن الثاني عشر، جاء رهبان أرثوذكسيون من جنسيات مختلفة ليستقروا مع اليونانيين: جيورجيون وروس ولاتين وصرييون. وفي القرن الثالث عشر، عانى الرهبان في الجبل المقدس الأزمة الحاصلة في الكنائس في الشرق. استمرّ الوضع هكذا حتى القرن التالي على عهد الإمبراطور أندرونيس الثاني الذي نشر السلام في الجبل من جديد.

شهدت هذه الفترة أيضاً اضطرابات بسبب الغزوات المتتالية للقراصنة المسلمين. دُبح عدد كبير من الرهبان وأُحرقت أديرة كثيرة. كذلك نهبت محتويات الأديرة النفيسة أو حطمت. في ما بعد ساهم الأباطرة البيزنطيون وأمراء صربيون في إعادة إعمار ما تهدّم من الأديرة.

أما القرن الخامس عشر فشهد فترة من السلام والنمو الروحي في الجبل إلى حين استولى الأتراك على تسالونيكيا عام 1430. مذ ذاك وقع الجبل تحت سلطة السلطان مراد الثاني ومحمد الثاني الفاتح من بعده الذي استولى على القسطنطينية عام 1453. شكّل آثوس للمسلمين موضعاً ذا قيمة روحية عالية فكان بنظرهم "البلد الذي اسم الرب مبارك فيه نهراً وليلاً، ومأوى الفقراء والغرباء".

رغم ذلك واجه الجبل أزمة اقتصادية كبيرة سببها الضرائب الهائلة المفروضة عليه من قبل السلطات التركية ومصادرتها لأملاكه. اضطرت حينها الأديار اتباع نظام إيديوريتمي بحيث يتبع كل راهب نمطه الخاص من الصلوات والعيش. لم تعد الأديرة في عهدة رئيس (Higoumene)، بل هيئة مؤلفة من عدد من الأعضاء.

سُحقت بيزنطية بالكامل من قبل الأتراك خاصة مع تخلي الغرب عنها. وما كان الجبل المقدس ليستطيع الإستمرار تحت الضغط العثماني لولا المساعدات السخية الآتية من روسيا ورومانيا ومولدافيا وأوكرانيا والكوكاز. ووجدت اليونان المحتلة في جبل آثوس المحامي عن تراثها الفكري والروحي. وقد نتفد الكثير من اللاهوتيين والمفكرين في الأكاديمية الآثوسية. هؤلاء سوف يشكّلون النواة للنهضة اليونانية.

في العام 1821، شكّلت الثورة اليونانية مرحلة جديدة في تاريخ الجبل المقدس. انضم الكثير من الرهبان إلى مواطنيهم في مقاومة الأتراك. بعضهم لم يعد إلى ديره إلا بعد عشر سنوات.

في الفترة اللاحقة وقعت آثوس في سبات. ابتدأ الرهبان يشيخون ولم يكن هناك من يخلفهم. المریدون الشبان كانوا قليلين. على هذا عانى الكثير من الأديرة الإهمال. ولم يتحسن الوضع كثيراً إلا حوالي العام 1970، حين بدأت مجموعات شابة تحمل مشعل الحياة الرهبانية.

اليوم يتألف جبل آثوس من عشرين ديراً كبيراً والكثير من المنشآت التابعة لها. إدارة الجبل تسري بموجب ميثاق حرر عام 1924 و صدّق عليه من قبل الدولة اليونانية عام 1926. جبل آثوس له كيانه المستقل ضمن الدولة اليونانية وهذا النظام موافق عليه من قبل المجموعة الأوروبية. يمارس المجلس المقدس السلطة التشريعية في الجبل وهو مؤلف من عشرين عضواً، رؤساء أديرة أو شيوخاً (متقدمين) من كل دير. السلطة التنفيذية، من ناحية أخرى، منوطة بالـ "Sainte Epistaspie" وهو مجلس مؤلف من أربع أعضاء، كل عضو يمثل أربعة أديار. الحاكم المدني في آثوس يقيم في كارييس، المدينة الوحيدة والصغيرة على شبه الجزيرة؛ وهو يقوم بدور وزير الخارجية والمسؤول عن تطبيق الميثاق واحترام الأمن العام.

كل الحجاج الذكور مرحب بهم، أرثوذكس أو غير أرثوذكس، شرط طلب إذن الدخول من "مكتب الحجاج" في تسالونيكيا.

#### المرجع:

Da Costa, Fabian (2005), *Florilège du Mont Athos*, Paris: Presse de la Renaissance